الشرق الأوسط
ASHARQ AL-AWSAT
جريدة العرب الدولية

رابط المصدر: https://aawsat.com/node/1062936

5 فنانين يخلّدون ذاكرة المدن السورية

ينتمون إلى تيارات وأجيال مختلفة وبعضهم لا يزال يقيم في البلد

الأربعاء - 4 صفر 1439 هـ - 25 أكتوبر 2017 م رقم العدد [14211]

حلب... لوحة للفنان منهل عيسى

لندن: عدنان حسين أحمد

افتتح في «غاليري ويلِزدن» بلندن معرض مشترك لخمسة فنانين سوريين ينتمون إلى تيارات وأجيال مختلفة، بعضهم لا يزال يقيم في سوريا مثل غسان جَديد ونزار صابور، وبعضهم الآخر انتقل للعيش في المنافي العربية والأوروبية، حيث رحل خالد الساعي إلى الإمارات العربية المتحدة، بينما التجأ منهل عيسى إلى فرنسا، أما فيرجيني أراكيليان فقد يمّمت وجهها شطر الولايات المتحدة الأميركية. وقد انضوى المعرض تحت عنوان «ذكريات المدن» وسوف يستمر لغاية الحادي والعشرين من شهر أكتوبر (تشرين الأول) الحالي.

تتمحور ثيمة المعرض الرئيسية على 3 أسئلة جوهرية مفادها: ما علاقة الفنان بالمدينة؟ وما رؤيته الفنية لها؟ وكيف يمكن التعاطي معها إذا ابتعد عنها أو ظلّ مُرابطاً ضمن حدودها الجغرافية المُتعارَف عليها؟

أكبر الفنانين الخمسة سناً هو غسّان جَديد من مواليد طرطوس عام 1946، درس الرسم في كلية الفنون الجميلة بجامعة دمشق، وتخرج فيها عام 1971، وقد اشترك في هذا المعرض بخمس لوحات أنجزها العام الماضي وتحمل كلها اسم «طرطوس»، لكن المتأمل في هذه الأعمال الفنية سيكتشف من دون عناء أن الفنان لم يرسم ما تراه العين المجرّدة، وإنما رسم فقط ما سرّبته ذاكرته الفردية البصرية، وما تسلل من لا وعيه الخاص لحظة قيلولة الرقيب، فبدت أعماله الفنية كأنها لوحات حُلُمية وجدت طريقها إلى السطح التصويري في غفلة من الزمن حتى أن تقنيتها التعبيرية التي تميل إلى المنحى التجريدي بدت بخطوطها الليّنة المطواعة كأنها مُنفّذة بجرأة طفل فنان لكنه يعرف ماذا يريد. تُذكِّر لوحاته بأعمال كارل أبل وكورنيه لكنها لا تحيل إليهما مباشرة. لا يمكن إغفال تقنية التضاد اللوني في مجمل أعماله، حيث تتجاور الألوان الحارّة والباردة، الصريحة والممزوجة التي يتسيّد فيها الفرح والحيوية والتوهج. ومن بين أطيافه الحُلُمية تبرز معالم المدينة التي استقرت في ذاكرته مثل الكاتدرائية، وبرج طرطوس، وسورها القديم وسواها من المعالم المحبّبة إلى نفسه.

اشترك الفنان نزار صابور بخمس لوحات صغيرة لكنها معبِّرة جداً وتحمل جميعها اسم «ذاكرة المدينة». فقد ولد في اللاذقية عام 1958 وأحبّكل المدن والمواقع الأثرية سواء في مسقط رأسه أو في بقية المدن السورية، فلا غرابة أن تتسلل إلى أعماله الفنية التي يُحضِّر لها سلفاً قبل أن يشرع في تنفيذها على الكانفاس أو الخشب أو الورق أو أي سطح تصويري آخر. عُرف صابور برسومه للأيقونات التدمرية التي تعود إلى 1800 سنة، لكنه استدار بكل شغفه ليجسِّد مدينتي معلولا وصيدنايا المعروفتين برمزيتهما المسيحية اللتين لم يجرؤ أحد على حرقهما أو تدميرهما على مرّالتاريخ، لكن ألسنة الحرب والنيران امتدت إليهما عام 2014 وأخذت منهما مأخذاً كبيراً.

تتميز أعمال صابور بتقنيتها الحزينة المرهفة التي يحاول بواسطتها أن يخلّد الأبدية من خلال إحياء الماضي في الحاضر، ويسعى في مصغّراته أن يقدم صوراً بصرية سهلة القراءة، وجميلة التكوين. ومَن يتمعن في بعض لوحاته سيجد أنها منفّذة بطريقة التطريس (Palimpsest) كأنه يوحي بتماهي الماضي بالحاضر. لا بد من الإشارة إلى أن لوحاته الخمس في هذا المعرض مريحة

بصرياً، فثمة مربع صغير مرسوم بألوان هادئة داخل مربع أكبر منفّذ بالرماد، وهي المادة التي يستعملها كثيراً في أعماله الفنية التي يعالج فيها فكرة الموت والتآكل والانحلال.
في كل مجموعة أشجار ثمة شجرة شاهقة لا تُخطئها العين ولوحات الفنان منهل عيسى تشبه الأشجار المتسامقة التي تتميّز بحضورها الاحتفائي الباذخ الذي يجذب المتلقي ويُرغمه على الغوص في متون الثيمات وهوامش الأفكار الثانوية التي تتشظى تباعاً مثل الألعاب النارية التي تضيء عتمة السماء. وعلى الرغم من سمو الموضوعات التي يطرحها في أعماله الفنية، وحسّاسية خطابها البصَري، فإن تقنيته الصادمة هي التي تجبر المُشاهِد على أن يتسمّر أمام لوحاته مدهوشاً، وهو يرى أن عجلات السيارات قد استعملت أداة من أدوات الرسم لغاية مُحددة تعكس رأي الفنان في الحرب الكونية التي تدور رحاها في المدن والقرى السورية. اشترك منهل بثلاث لوحات كبيرة الحجم كي تضمّ فضاءاتها التصويرية جبل «قاسيون» على وجه التحديد وجانباً من الأحياء الدمشقية التي تلوذ بسفح هذا الجبل الخالد المحفور في الذاكرة، لكن الفنان قدّم هذه الفكرة بمعالجتين لونيتين مختلفتين؛ الأولى يتزاوج فيها الأسود مع الأزرق بدرجاته اللونية المختلفة ليعبِّر عن رؤيته الشخصية التي تمثلت في لوحة «قاسيون 1»، أما اللوحة الثانية «قاسيون 2» فيتسيّد فيها الأحمر الدموي الذي يتخفّف شيئاً فشيئاً إلى البنفسجي الأقل وطأة ويستقر في خاتمة المطاف إلى درجاته الزهرية التي تهيمن على المدينة برمتها. كما تخضع لوحة «حلب» إلى الثيمة ذاتها والتقنية التي يؤكد من خلالها الفنان منهل عيسى أن المدن السورية منقوشة في ذاكرته، ومحفورة في عصب القلب، وأنها لن تغيب، فهي على حد قوله: «تشبه الفن والحب والأحلام التي لا تنطفئ أبداً».
يبدو وجود الخطاط خالد الساعي في هذا المعرض شاذاً، لأن الخط يقترن بالزخرفة الإسلامية ولا يرتبط بالتشكيل كثيراً، ولعل صلة الخطاط الوحيدة في هذا المعرض هي ثيمة «ذاكرة المدن» التي جمعت أعمال الفنانين الخمسة في صالة واحدة. اشترك خالد الساعي بأربعة أعمال فنية تتناول 4 مدن، وهي أصيلة ودمشق والميادين والمدينة السماوية، لكن المتأمل في هذه الأعمال لا يجد أثراً ملموساً للمدن المشار إليها سلفاً، وذلك لغلبة المنحى التجريدي على أعماله الفنية. ولنفترض أن هناك ملامح متوارية للمدن الثلاث قد تصطادها العين المدربة على معرفة مَشاهد المدن ومعالمها الأثرية، لكن الأعمال نفسها خالية من أي معْلمٍ شاخص باستثناء بعض العمارات الشاهقة وواجهة البيوت في خلفية لوحة «دمشق» التي قد يتعرّف عليها المُشاهِد السوري الذي يتوفر على ذاكرة بصرية قوية وحسّاسة في الوقت ذاته.
إذا كانت ثمة مفاجأة أخرى في هذا المعرض فهي لوحات الفنانة السورية من أصل أرمني فيرجيني أراكيليان التي قدِمت من أورلاندو الأميركية لتعرض 12 عملاً فنياً؛ 9 منها بقياس 25 X25سم، والثلاث الباقيات بقياس 50 X50 سم، وهي تشتمل على لوحات لبلدات سورية وأماكن دمشقية كانت تتردد عليها فيرجيني مثل «حديقة التجارة»، و«مركز المدينة»، و«البزورية»، و«كسب»، و«صلفنة»، إضافة إلى مَشاهِد أحبّتها مثل النافورة، وشرفة دمشقية، والنارنجة، ومجنونة وما إلى ذلك.
ما يميز أعمال هذه الفنانة الشابة هو ثيماتها المكانية، وتقنيتها العفوية السلسة، وتفجّر ألوانها الشرقية الصريحة التي تخطف القلوب قبل الأبصار، وهي تذكِّر ببعض أقطاب حركة «كوبرا» أيضاً وآخرين يتصفون بنزعتهم الطفولية الجريئة في الخطوط والتكوينات والألوان، مثل فنان البوب ارت ديفيد هوكني الذي تكتظ لوحاته بالألوان الصارخة التي تغيّر مزاج المتلقي وتبعث في نفسه الفرح والنشوة القصوى.
تحتاج أعمال الفنانَين منهل عيسى ونزار صابور إلى قراءة نفسية للعمل الفني، فقد بذل الاثنان جهوداً مضنية في إنجاز أعمالهما الفنية التي تحتاج إلى بعض المفاتيح لسبر أغوار الموضوعات التي يجسّدانها على السطوح التصويرية، فثمة رؤى وأفكار عميقة في كل عمل فني وثمة تخطيط مدروس يسبق تنفيذ هذه الأعمال الفنية التي سيترسخ بعضها في ذاكرة المتلقين حتماً.

اضغط هنا للطباعة.